قال ، فمضيت ، والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه ، قال فبادر إلى برجوان ، وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال : انزل ، ويحكم الله فينا وفيك ، قال فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال ، وأخرجنى حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة ، وقع هذا المنظر بمدينة بلبيس فى ٢٨ رمضان ، وفى اليوم التالى سار الحاكم إلى عاصمة ملكه فى موكب رهيب فخم وأمامه جثة أبيه ، وبين يديه البنود والرايات ؛ وقد ارتدى دراعة مصمت ، وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف وبيده رمح فدخل القاهرة عند مغيب الشمس ؛ وفى الحال أخذ فى تجهيز أبيه ، ودفن عشاء بالقصر . وفى صباح اليوم التالى ، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبى فى الايوان الكبير ، سرير من الذهب عليه مرتبة مذهبة ، وخرج من القصر إلى الايوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر والناس وقوف فى صحن الايوان ، فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالإمامة ونودى فى القاهرة والبلدان أن الأمن موطد والنظام مستتب فلا مؤنة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال

هذه لمحة من الرسوم والتقاليد التى كانت تجرى عليها الدولة الفاطمية فى تولية خلفائها ، وهى رسوم ملوكية عريقة يطبعها لون من البذخ الساحر . وقد كانت الدولة الفاطمية ، وهى أولى الدول الاسلامية المستقلة بمصر ، دولة البذخ والبهاء ، وكانت رسومها وتقاليدها فيما بعد مستقى خصبا للدولة الاسلامية التى تعاقبت من بعدها فى عرش مصر (١)

محمد عبد الله عنان

(١) رجعنا فى هذا البحث الى خطط المقريزى ، وصبح الاعشى للقلقشندى وحسن المحاضرة للسيوطى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وابن خلكان . الخ

دمـــوع الحب

للأستاذ يوسف البعينى

لتتذوق رحيق الفن ، وتتسلل إلى سراديبه الرهيبة وتعانق غوانيه المعطرة . . يجب أن تقرأ ـ بول فاليرى ـ فقصيدة واحدة من هذا الشاعر العبقرى المجدد حياة فنية منفردة لها ألوانها وخطوطها وأصباغها . جملة صغيرة من ريشة بول فاليرى تعطيك معنى ألذ من تغريدة البلبل ، وأطرب من أنغام الرباب . وأعذب من الأحلام . . أما الحياة التى تلمسها فى سطوره وصوره فتبكى وتفرح ، تشكو وتبتسم . تغرد للصباح الضاحك ، وتكتئب للمساء الحزين ؛ حياة ككل حياة ، لكنها تختلف برموزها وأسرارها . وهذه الرموز والأسرار هى عبقرية الشاعر العظيم والفنان الملهم ؛ هى كائنه الحى الأعلى ؛ هى روحه التى غاصت فى البحر فالتقطت درره ، وتغلغلت فى الليل فاتشحت بازاره . وفى القلوب فاجتنت ميولها وعواطفها وشهواتها .

لقد قرأت أكثر مؤلفاته فتبينت فيها الفن المجنح الذى يفتح عينيك على صور موشاة بجميع ألوان الحياة وأدهنتها الرائعة . وما إن تحدق قليلا بسطر من سطوره حتى تتولاك رحاب الشاعرية ؛ هى غيبوبة بعيدة القرار يشملك بها الشاعر الفنان فيريك بهجة الربيع واخضراره ، ويسمعك عويل الخريف وشكواه . وإن شاعراً يغمرك بكل ماتشتاقه الروح ويحلم به القلب ليعرف من الحياة غير أسمائها ، ويقرأ من الكلمات أكثر من حروفها ، ويبصر فى مشاهد الأعراس والمآتم غير ما يبصره الناس !

* * *

ومن أروع ما طالعته أخيراً لهذا الشاعر الساحر رسالة دعاها ـ دموع الحب ـ قرأتها بروح نهمة تريد أن تتفهم معانى الحياة وتتكشف أسرار الجمال فاذا هى قطعة فنية

خالية يشوقك ما فيها من تقديس لدموع الحب ، الحب الذى يتفجر من صدر المرأة فيبقى خافقاً فى روع الماضى والحاضر والمستقبل . وليت شعرى هل فى العالم حديث أعذب من حديث رقيق تدبجه ريشة الفنان المتعبد للمثل الأعلى فى ساعات وحيه وإلهامه ؟ إن الكلمة التى تتحدر فى قلبك وقد تشربت بدموع الحب وتسربلت بضبابه لهى الكلمة الحية ، بل هى الكلمة الخالدة التى تتباغم بها أشباح الأيام والليالى

لكننى وقفت مبهوتاً أمام مقطع صغير عنوانه ـ انتحار ودموع ـ لا لشىء إلا لأنه مقطع تنبو عنه الحياة ، وإن يكن يستظرفه الفن ؛ وينبذه الحب الروحانى الملظى بجمر التضحية والمدمّى بالألم والاستشهاد ، وإن تكن ترتضيه الشهوة الوحشية المتنطسة . . وإنى لمورد خلاصته فيما يلى لتعلم أن الشاعر مهما مُنح من فن وإبداع . وأوتى من تصور وإدراك ، يظل جاهلا أسرار المرأة ، رازحاً من حبها ودموعها على كلال

أما المرأة التى جاء الشاعر يقدس دموعها فى ذلك المقطع الصغير فهى ـ كليوباطرة ـ ملكة مصر وربة النيل . ولكن أصادقة تلك الدموع التى ذرفتها المرأة الحسناء على موت حبها ؟ هذا ما أريد معرفته . . فلتقرأ الآن خلاصة القصيدة :

قبل أن تودع كليوباطرة حياتها الزاخرة بذكريات الحب أحبت أن تهيىء لعشاق جمالها مأدبة كبرى مثقلة بكرمها الملكى ، ففعلت : وبعد انتهاء المأدبة أحضرت لها وصيفتها الأمينة «إيراش» سلة مملوءة بالتين ، فكافأتها وشكرتها كثيراً ثم أخرجت من طيات ثوبها الفاخر خطاباً قصيراً لتسلمه الوصيفة إلى « أوكتافيوس » قيصر روما فى ذلك العهد

وبعد هذا بحين انسحبت كليوباطره إلى مخدعها الشيق المزين بزهر الجلنار وجلست وحيدة ، وفى وحدتها الموحشة شرعت تحلم إلى أن اخضلت أجفانها بالدموع

بكت لأنها تذكرت أيامها الماضية ... تلك الأيام المخمرة بالحب !

إلا أنها لم تلبث أن مسحت دموعها ونظرت إلى وريقات التين نظرة عميقة مفعمة بالتأمل وطافحة بالحزن والألم . ذلك لأن عينى الحية الماكرتين كانتا تلمعان فى وسطها لمعاناً موجساً مخيفاً كنور الحباحب على قبر مهجور

وفيما هى تتناول الحية السامة بأناملها قالت تباغمها بكلام رقيق كنوم السحر : أيتها المخلوقة الفاتنة ، المرذولة من جميع الناس ، إنى أعبدك ... ولهذا ترينى لا أخشى لذعتك ! نعم لا أخشاها ... لكونها تريحنى من هذا العالم ، وتجمعنى بمن أحب ... ثم وخزتها وخزة موجعة فتململت الحية ولسعتها فى صدرها !

عند هذا نهضت كليوباطرة وتمددت على سريرها هامسة : ها أنذى أوافيك يا أنطونيوس ! يامن غذيت أزاهير أحلامى بالحب !

انتحرت ـ كليوباطرة ـ فاضطرب النيل وارتعشت أوراق النخيل فى مملكة ممفيس ... لقد ارتجف كل كائن حى خلا قلباً واحداً لم يرتجف ، هو قلب ـ أوكتافيوس ـ سيد روما فى ذلك الزمن . لكنه على الرغم من كل ذلك فض الخطاب الصغير وتمتم قائلا :

إنها تريد أن تدفن مع حبيبها أنطونيوس . نعم ، تريد أن تعانقه دائماً بعد الممات . فليكن لها ما تبتغى ... هو الحب فلتبلل ضريحها دموعه المقدسة »

* * *

هذا ملخص القصيدة . ففيه تلمس تخليد الشاعر لحب ـ كليوباطرة ـ ذلك الحب الذى شغل فريقاً من العبقريين فى التاريخ ، ولكن على الرغم من الجمال الشعرى والاشراق الفنى فى القصيدة أود أن أعرف أصادقة تلك الدموع أم كاذبة ، أشريفة أم أثيمة ؟

لم يبق بين الذين عنوا بتاريخ كليوباطرة من لم يمجد دموعها فى حبها ، ويطرى موقفها المؤثر فى ساعات انتحارها . أما أنا فأهزأ بتلك الدموع التى حملتها على الانتحار لأنها دموع لا يقرها الحب الروحى السامى الخاضع للتضحية

لقد بكت كليوباطرة وهي تنتحر ، ولكنها لم تبك على

حب مقدس ، بل على نزوة حمراء تصرمت وتبددت ... والحب الذى يسوده نزوان اللحم والعظام خادع كالتراب المذهب

إن أشرف أنواع الحب هو ما تندت به العاطفة واختمرت به الروح ، فدموعه تبقى منهلة فى المحاجر كندى الفجر . أما الحب الذى تولده الأعصاب فدموعه مستقطرة من الوحل لا من أجفان السماء

ولا يعتقدن القارىء أن كليوباطرة احتكرت وحدها هذا النوع الفريد من الحب الحيوانى الغليظ ، فهنالك امرأة تبزها هى (جان ديفال) التى أضرمت بضراوتها المستنكرة عبقرية ـ بودلير ـ شاعر فرنسا فى الجيل الماضى . فقد كونت فيه عنصرين متناصرين أبداً ... عنصر يستلينه جسدها الغامر بالشهوة ، وعنصر يحترق حنقاً منها فيجوب رحاب الروح شاكياً من تلك النار المشبوبة ، الناغلة بأحط انواع الحب . ومن يراجع كتابه المشهور ـ ازاهير الشر ـ وهو من اروع الكتب الشعرية فى دولة البيان يقرأ تلك المقاطع التى تصور انتحاره النفسى البطىء ، وهى عندى من ابلغ ما أخرجه الشعراء فى العالم

فانظر كيف يصفها الشاعر :

« عندما أجلس قربها فى ليالى الخريف الدافئة مستنشقاً شذا صدرها الحار ... تحملنى الأحلام إلى بلاد سعيدة رائعة فى حلل وضاءة من نور الشمس فأرى فيها نساء تسبيك أجسامهن الفاترة المتكاسلة لما يعذبها من شهوة مخدرة ، وبرح أليم !

وعندما تنتقل متمايلة فى غلائلها الهفافة ، المنبهة للحواس ... إخالها ترقص كتلك الأفاعى الخبيثة التى يرقصها الحواة فى الشرق على أنغام الشبابة الحزينة !

وعندما تتمدد عند أقدامى مستضرعة إلى بأرق كلمات الصبابة لكى أطفىء جذوة لهبها المحرقة ... أحسبنى أرى موجة من أمواج البحر العرارة تتراخى واهية على الشاطىء بعد أن أفرغت الزبد من فمها !

ـ هى بعينيها المتقدتين كأشرار المعادن

ـ وهى بلحمها الوضاء المغرى كجمرة الأتون الحمراء

ـ إن فيها بريقاً وناراً ...

ـ وإن فيها لهيباً وكبريتاً !

ـ هى امرأة سحرية ... تمثل لك بجمودها المخزى أبا الهول الصامت ، وبشهوتها اللافحة حية هائلة مخيفة ! »

ثم انظر كيف يصفها هنا :

« أحبك وأمقتك معاً أيتها الفاجرة الطاعنة قلبى بخنجر سام ، الناغلة فى جسمى كما تنغل الحشرات فى جيفة منتنة !

المواردة فى روحى كالشياطين !

أيتها الضارية المتخذة شر فى سريراً لفحشائها ، أيتها الساقطة المكبلة إرادتى بالأصفاد ، انى اكرهك ... فلعينة أنت !

لقد استغثتُ بالسماء ان تقبضنى اليها . واستنجدت بالموت تخلصاً من موبقاتك ... فلا السماء سمعت دعائى ، ولا الموت استجاب طلبى ، وكيف تفعل السماء والموتُ وأنا أنزف دمى على مضجعك الفاسد ، وأنحر جسدى فى طريق استهتارك المتقنعة ؟ »

* * *

إن دموعَ الحب رائعة ومؤثرة عندما تجيشها العاطفة المسحوقة ، ويحركها الاحساس الذبيح . أما اذا أجراها الغرام العابث فهى أفظع من المقصلة ، وأقسى من العبودية

مسكين اذاً ـ بول فاليرى ـ لقد أخطأ وهو يصور دمعة من دموع الحب . فلو انه رسم لنا دموع الذين يموتون من اليأس ، ويأسهم من خيانة المرأة لكان أبدع وأجاد

إن الحياة ، الحياة المتغلغلة فى القلوب والأرواح والسابحة على أمواج الماضى والحاضر والمستقبل ، إن هذه الحياة لتهزها نبرة الشاعر العبقرى وتفتنها ألوانه وخطوطه وأصباغه التى يطلى بها قصائده . أما الدموع الكاذبة الأثيمة التى يسعى إلى تقديسها بذلك البيان المورق الأنيق لتنفر منها ولا تقرها أبداً !

« البرازيل »

يوسف البعيني